نسيب عريضه الشاعر

(١٨٨٧ — ١٩٤٦)

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

لا يجهل ادباء الاقطار العربية ان نسيب عريضه السوري ـ الذي هاجر من حمص مسقط رأسه الى نيويورك سنة ١٩١٢ ؛ وظل مكباً في مهجره نحو اربعة وثلاثين عاماً على ترقية الادب العربي : قد استحق بجهوده الطريفة الجبارة ان يُعد في طليعة شعرائنا المنطلقين الذين فتحوا بحسارة رائعة موفّقة مناهج جديدة لتقريضنا الناهض . فلا بدع بأقدام كاتب هذه المقالة على تحليل شاعريته في كل عناصرها تحليلاً دقيقاً ، كما يقتضيه النقد الثاقب النزيه ، الذي يطرئ المحاسن اينما وجدها ، ولا يُسدل ستر التساهل على المساوئ : مراعاةً لشهرة المشاهير .

من اجمل حُلى شعر عريضه انه صورة حية لاحواله النفسية ، لا يشينها شائن من انواع المدح والرثاء والغزل المبتذلة التافهة ، التي لا يزال يعالجها اكثر شعرائنا المعاصرين . بيد ان من طالع قصائده بامعان ، ايقن ان نفسه الحساسة تبقى في الغالب فريسة الاضطراب الشديد والشك المبرّح في غاية حياتنا القصوى ، والحزن المضني العقيم . فهو اشبه بمن عمي او تعامى عن ربوات محاسن السماء والارض وملايين مزايا البشر ، كبراعة الاطفال وتضحيات الآباء والامهات ، ومآثر ابطال الوطنية والعلم والفضيلة . من ثم يتضح لنا ان عود شعره تنقصه اكثر الاوتار واشدها اطراباً للسامعين ، وانعاشاً لحسهم المرتخية ، وحثاً لهم على مواصلة جهاد الحياة لادراك اسمى غاياته .

عريضه لا يرى في آلاف مؤلفة من الناس الا مساعيهم الحثيثة الباطلة وراء هدف خلاب ، غير جدير بها ، ولا قيمة له ولا جمال الا في عقولهم المظلمة ومخيلاتهم الثائرة . لقد عبّر اوضح التعبير عن ذلك الرأي الشامل في « سفر الدهور » ؛ حاكم بعض ابياته :

عـالمٌ يبحث طـول العمر ما بين السطورْ ؛
جامعٌ في صدره مـا ليس تحويـه الصدور ؛
مـا تُراه حاز من فهم الاحاجي والجذور ؟ ... [1]
ذو ثراء يحسب المال غنىً ، وهو غرور ؛

(١) النقط الثلاث في آخر بيت شعر تدل دائماً على اهمالنا بعض ما يليه .

يملك المال . ولكن هو للمال اسير !
تاجر يطلب ربحاً من بضاعات ودور ...
يسهر الليل خوف من متاع ان يبور .
ثم ينسى المتجر الاسمى لدى حب الاجور !
عاشق يرقب في الظلماء انوار الخدور ؛
همه ان يتلهى بحور وبغور ؛
يمتطي النفس على مرأى قدود وخصور ؛
ما تراه يرتجي من وصل غادات وحور ؟
واذا ما شبع الجسم واضناه الفتور ؛
أنزل الحب من العرش الى سوق الفجور !

يعود مرارًا الى ذلك التشكي من مادية الناس وخباثتهم : فهو كالأرملة التي لا تزال تذيك حزنها على فقدان رفيق حياتها . او الثكلى التي لا تجف مآقيها . ولو انقضت على موت ولدها اعوام عديدة . حسبنا اثباتاً لذلك . ذكر تحديده الشائن للناس في « مناجاة » :

الناس من هم ؟ جوم ضاعت بهن النفوس !
ان يرقدوا . فنعيم وقادهم في البؤوس .
واحسرتا ! انا منهم ما دام جسمي اللبوس !

قد بلغ به هذيانه في حكمه المطلق على سفالة ابناء جنسه : حد نعي الفضيلة : كأنها قد زالت زوالاً كاملاً . دونكم قصيدته «على الاطلال» برمتها :

يا صاحبيّ : لقد عفا ربع المروءة والوفا !
عوجا على اطلاله ؛ ومع القلوب بها قفا
وتأملا ثم اتلوا آي الوداع وطرّفا !
لله صرح شامخ قد صار قاعاً صفصفا !
لم يبق منه غير ذكر من اساطير الخفا ؛
فتأسفا !

لقد طُبع الانسان : بسبب فساد جبلته : على نسبة عيوبه ورذائله : ولو فاحشة : الى جميع الناس : كأنه يجد في هذا التعميم البالغ اقصى حدود الحماقة والجور ، بعض التسكين لنخس ضميره ، الذي هو صيحة عقله الغضبان ومولاه المنتقم . ذلك ما نراه بأتم الجلاء في قصائد عريضه . من الاكيد ان الشك في غاية حياتنا التعسى قد خامر نفسه فعلّها اجول التعذيب ، من

شرخ الشباب حتى الموت الذي نقلها الى الابدية في التاسعة والخمسين من اعوام حبسها في سجن الجسد . قد باح لنا بذلك النداء التاهك العضال في عدة قصائد ، من جملتها « الى برق » حيث يقول له :

طوينا عوالم الاسرار قبلك ، نقصد المغنى ،
وحلقنا وغلغلنا ونادينا وقتشنا ،
وكم باباً طرقناه ، وبالنجوى توسلنا .
وقلنا « قد يزاح الستر او قد تلحق الظعنا ،
« وتبلغ مرفأ الحظوات ، نحرق بعده السفنا . »
فيا لك خيبةً كانت ، عرفنا بعدها الحزنا !

من لازمه الريب في غاية حياته القصوى ، فهو عاجز كل العجز عن كبح شهواته الجامحة ، ولا مندوحة له عن اطلاق العنان لطغيانها . قد اعترف لنا عريضه بسقوطه هذا في « رُباعيات » :

شربتُ كأسي امام نفسي ، وقلت : « يا نفس ، ما المرام؟
« حياة شك وموت شك ، فلنغمر الشك بالمُدام !
« آمالنا شعشعت فغابت كالآل ابقى لنا الاوام ! »

بل قد افضى به ذلك الضلال الجسيم الى الاتقاح على انكار الفرق بين الخير والشر في « سيّان » :

الطُهر لا يُدني ، والعهر لا يُقصي ،
فالكأس ، ان تطفح ، كالكأس في النقص .
الجوهر السامي يبقى بلا رجس ،
كم موسمٍ تمضي عذراء ، للرمس !
فافعل كما تهوى ، يا قلب ، لا تحذر ،
ان كنتَ من تبر ، ما ضرك المعصر .

مع تمسكه المألوف في غياهب الارتيابية ، وتدهوره في دركات المعاصي ، تصحو نفسه في فترات قليلة من نشوة غرورها وفسقها ، فتُقر اقراراً ذليلاً بخزيها الشديد في ابتعادها عن خالقها العظيم ومولاها المعطاء ، فتطلب منه العفو عن آثامها . ذلك ما عبّر عنه تعبيراً رائعاً في « صلاة » :

وقفتُ ، وقد ضاق بي سبيل المُنى الساخره ،
ولم يبق من مذهبي سوى كدر الآخره !
وقفتُ وحيداً ضليلاً ضعيفاً حليف الشجن ،

اريد الصلاة طويلاً : لمن ؟ كدتُ انسى لمن !
الى من يصلي فتى تعوّد غير الصلاة :
ويشغل قلباً عنا . وصال بغير الاله ؟
ايا من سناه اختفى وراء حدود البشرْ :
نسيتك يوم التصفا : فلا تنسني في الكدر !
أبا غافراً أرحما . يرى ذل امسي وغدْ
معاذك ان تنتقما . وحلمك ملءُ الابد !

في اوقات يقظته الروحية النادرة . يشعر شعوراً اليماً بان حطام الدنيا ولذاتها السخيفة السريعة الزوال لا تستطيع البتة ان تملأ روحه العطشى الى الخير الكامل والسعادة الابدية ، اللذين يجهلهما او يتجاهل انهما في الله وحده ، عز وجلّ . فيكشف لنا مراراً توقه الدائم المضني الى تلك الطوبى المشبعة التي لم يعه اصلاً . مع هيامه باجمل الخلائق ، ان يكنّ في اوامه بقطرة منعشة من بحرها الطامي . يقول في « نار إرَم » :

صاح ، قل هل ترى فوقي اوج الذُرى :
بارقاً قد سرى ما وراء الحدودْ ؟
تلك نار الخلود...
نحو ذاك الوميضْ سر بنا نستعيضْ
عن ظلام الحضيض وشقاء الوجودْ
بسناء الوعود !
ايه ، صوتي البعيدْ : لُح ولُح ما تريدْ :
ليس طرفي يحيد عنك حتى يعودْ
لتراب ودود.
لُح ولُح في الفضاء ؛ قد سمعت النداءْ :
ودليلي الرجاء ؛ فعاد يقودْ
ظامئاً للورود !

قد هاله ونهكه بعض الاحيان طموح نفسه الى الخيرات السماوية ، وتمرد جسمه الحرون المشغوف باطايب الارض ، على سلطة روحه الراذلة لنجوره ، فيلومها على ما يزعمه قساوةً منها لوماً عنيفاً . يقول في « يا نفس » :

يا نفس ، ما لك والانينْ ؟ تتألمين وتولمينْ :
عذّبت قلبي بالحنينْ وكتمته ما تقصدينْ...

اصعدت في ركب الذروع ... حتى وصلت الى الربوع .
فاتاك امر بالرجوع : ... اتأسفين على هبوطك ؟
ام شاقك الذكر القديم ... ذكر الحمى قبل السديم .
فوقفت في سجن الاديم ... نحو الحمى تتلفتين ؟ ...
اعشقت مثلك في السماء . ... اختاً تحن الى اللقاء .
فجلست في سجن الرجاء : ... نحو الاعالي تنظرين ؟ ...
يا نفس . هل لك في انفصال ؟ ... فالجسم اعياه الوصال ؟
حملته ثقل الجبال ... ورذلته : لا تحفلين !
عطش وجوع واشتياق ، ... اسف وحزن واحتراق !
يا ويح عيشي ! هل تطاق ... نزعات نفس لا تلين ؟ ...
ارأيت بيت العنكبوت ... وذبابة فيه تموت ؟
رقصت على نغم السكوت ... الماً : فلم يغن الطنين !
فكذاك في شرك الرجاء ... قلبي يلذ له الغناء :
ما ذاك شدواً بل رثاء ... يبكي به الامل الدفين !

من فرط شقاء نفسه الزازحة تحت وطأة الشهوات الامّارة بالسوء ، يتمنى احرّ التمني ان ينال بعد الموت من الطمأنينة والغبطة الكاملتين ، ما عجز عن ادراكه في وادي الدموع . يقول في قصيدته « امام الغروب » :

رويدك ، شمس الحياة : ... ولا تسرعي في الغروب :
فما نال قلبي مناه ... وما ذاق غير الخطوب ! ...
بربك قل ، يا دليل ... الى اين تفضي الطريق ؟
فقد حار عقلي الكليل ... امام الظلام المحيق .
ستترك هذي الربوع ... كشمس دهاها الغياب ؛
وللشمس صبحاً رجوع ؛ ... اليس لنا من اياب ؟
انمضي كذا جاهلين ... حيارى ، مطايا الاسف ؛
ويبقى الملا ذاهلين ؟ ... فطوبى لعقل عرف !
كذاك عنا ، يا فكر ؛ ... تعبت بلا طائل ،
فما نحن الا اثر ... على الرمل في الساحل .
سنبقى قليلاً هنا ... الى المد حتى يعود ؛
فيمضي سراعاً بنا ... الى البحر ، بحر الخلود !
اشمس الحياة ، آغربي ... ولا تمهليني لغد ،
فما حاصل مطلبي ، ... ولو طال عمري الابد !

اشمس الحياة . أسرعي وغيبي . فانت خيالُ :
اشمس الخلود . اسطعي : اليك . اليك المآل !

في « صرخة من الوادي » يتوسل الى اخيه سابا المشرق ان ينعش ايمانه الواهي المتزعزع بخلود النفس : فيصيح به :

يا صح . ليلي طـــال . والظلمات فيـــه لا تُحدُّ ...
افلا بصيص او صدى او آيةٌ في الليل تبـــدو ؟
تلقى بـــا نفسي الجواب ومن رجائـــك تستمـــد .
اوَلا تعللـــني بوعـــد باللقـــاء ؛ فـــاستعـــد ؛
وتعـــزني ايمـــاني . فقدْ اودى بـــه شكٌّ وجحد ؟
هـــلا اجبت وقلت « اني سامعٌ » . فـــاعود اشدو ؟

في « احتضار ابي فراس » يعظّم بلسان ذلك الشاعر عظمة الموت وسيطرته المطلقة على جميع بني آدم : فيتذلل امامه ويلتمس منه ان يحرر نفسه التاعسة المعذّبة من اسر الحياة :

يا موتُ ، يا ملك الحيـــاة . امير كـــل الكائنات :
يـــا ناثرُ الشمل الجميـــع وجامعاً كـــل الشتات .
إبسط يـــديك وحُلَّ اسر الروح من هـــذا الرُفات !
خذهـــا اليك عصيّةً سالت على حد الظُبات !
المُ الحيـــاة لـــذي الحيـــاة اشد من الم الممات !
هات اعطني حتى الاخير . فذاك من خـــير الهبات !
قد كنتُ في اسر ، ولم . افقـــه ؛ وقد حانت نجاتي .
اني ارى نـــور الخلود يضيء في كل الجهـــات ؛
فـــاطفئ سراجي واسدل الستر الاخـــير عـــلى حياتي !

قلما تشتد عزائمه الخائرة في الغالب ، بانتعاش ايمانه بالله تعالى ورجائه للسعادة الابدية في جوار مولاه . عندئذ يحث نفسه الخامدة همتها في المتاعب والشجون والمصائب . على مواصلة السير في عقبات الواجب الوعرة الكثيرة الاشواك . « على الطريق » الحاوية ذلك التحريض النبيل ، هي على رأينا ، من اجمل ما نُظم في لغة الضاد : فيلذ لنا ان نذكرها بحذافيرها :

لماذا وقفت بخوف وحيره ؟ ايا نفس ، عند الطريق العسيره ؟
الا آمشي : فان الحياة قصيره ؛ الا امشي !
مقرّ الاله بعيد ، فسيري لكي تدرك الله قبل النشور ،

وجدّي ولا تسألي عن مصيري بعيشي !
علامَ التفاتك نحو الطلول ؟ اشاقك تذكار ماضٍ محيل .
قلت الى العود قبل الوصول ؟ الا امشي !
كفاك من الماضيات الشباب . رياض امانٍ مناها السراب .
فقولي «وداعاً» . لماذا العتاب ؟ لنمشِ !
لماذا العتاب على ما انقضى ؟ انُرجع بالعتب عمراً مضى ؟
شقينا ولكن شقانا ارضى ؛ الا امشي !
شقينا بحمل صليب الزمان . ولكن غلبنا الشقا بالامانى ؛
ومن ذي وذاك نظمنا الاغاني ؛ الا امشي !
انفسي ؛ يربك خلّي السآمه ؛ وهبّي لنسبق تلك الغمامه ؛
وصلّي بدمع وبعض ابتسامه ؛ فنمشي .
الا امشي وبعد الجهاد الحقيقي سنسبق آمالنا في الطريق ؛
ونجني الاشعة قبل الشروق ؛ الا امشي !

السائر وحده على طريق كثير العقبات والمنعطفات ، محفوف بالاخطار ، تثقل عليه وطأة الانفراد والوحشة ثقلاً لا يلبث ان يخمد همته ويضطره الى التقهقر . ولكن ، اذا سايره ولازمه ملازمة ظله الناخ ودود باسل ، يشاطره جميع اتعابه واحزانه ، ولا يزال يتوق واياه الى غاية الحياة التصوى ، الغائبة سموها كل ادراك ، فيجد فيه على الدوام تقوية لضعفه وتعزية لكربه . في القصيدة « يا اخي ، يا اخي » يناجي عريضه ذلك الرفيق الامثل ، ويحرضه بالبراهين القاطعة وعلى اسلوب شعري رائع ، على مسايرته الى نهاية درب الحياة ؛ منها تفاقت شروره وحلكت دياجيه . وايم الحق ، لا مندوحة لنا عن نشر هذه القصيدة برمتها ، فقد بلغ فيها ناظمها قمة منيعة من قمم جمال القريض .

يااخي ؛ يااخي ؛ المصاعب شتى ؛ وبعيدٌ مرادنا والموارد ؛
وامام العيون دربٌ عسيرٌ ؛ لم تسر قبلنا عليه الاوابد ؛
مظلمٌ موحش ؛ كثير الافاعي والمعالي المستهويات الطرائد !
غير ان المسير لا بد منه ؛ ان اردنا ادراك بعض المواعد .
فلنسر في الظلام ؛ في التقفر ؛ في الوحشة ؛ في الويل ؛ في طريق الجاهد !
فلنسر اعزلين الا من الحق سلاحاً ، والفكر حساد وقائد !
واذا اشتدت الذئاب عواءً ، فلنقابل عواءها بالنشائد !
واذا احلولك الظلام ؛ اضأنا مشعل القلب مثل نار المواقد !
يااخي ؛ يا رفيق عزمي وضعفي ، سر نكابدْ ؛ ان الشجاع المكابد ؛

فاذا ما عييتُ، تسند ضعفي . وانا بعد ذا نضعفك ساند .
سر : تقدم لكي نخط طريقاً لأباة اخوان عند الشدائد !
يا اخي . يا اخي . المصاعب شتى . غير انّا في سيرنا غير واحد .
فلنسر . فلنسر . وإمّا هلكنا قبل ادراكنا المنى والمواعد :
نكفل انّا ابتدأنا وانّا . ان عجزنا . فقد بدأنا نشاهد !

يسوءنا جداً ان نصرّح بان امثال القصيدتين الاخيرتين ، المعبرتين تعبيراً فائقاً عن علو النفس البشرية وقدرتها العجيبة على وطء اشد المصاعب الخائنة دون ادراكها اوج الكمال . نادرة جداً في ديوان عريضه . انه . في الغالب . يُضجر القارئ ويُخمد عزيمته بوصفه المتواتر لاوهان روحه وخيباتها الدائمة . اللاذعة المرارة ، في سعيها وراء التمتع بمراتع الشهوات السافلة . قد ومز رمزاً مبتكراً الى حبوط جهوده الجاهدة في « رؤيا طائر » محبوس في قفص :

ذكرَ الطائر الرياض ، فغنّى وتناسى باللحن اسراً وحبنا ...
وجناحاه يخفقان ابتهاجاً لخيال رأى به ما تمنى...
شدد العزمُ فيهما ما تراخى ، ونفى عنهما ركوناً ووهنا ،
فاشمخرّا ورفرفا ثم كادا ان يطيرا : لو المطير تسنى .
صدما حاجز الحديد : فعادا مقشعرّين خيبةً واستكنّا !
فتوارى روض الخيال بعيداً ، وبدا دونه الذي كان ادنى ،
قفصٌ مغلقٌ يسه اشبع اليأس وليدَ الرجاء ضرباً وطعنا !
فانزوى الطائر الاسير حزيناً ، ليته ما رأى ولم يتغن !

قد اختبر الف مرة فراغ نفسه وجوعها الهائل الايلام والاضناء ، مع اكتظاظها بانواع الملذات السيئة او الباطلة ، فعبّر في « طريق الحيرة » عن شكه القاتل الفاحش في استطاعة السعادة الابدية إشباع سغب روحه :

تتنخ الخلاق فينا انفساً تهوى وتشقى ،
طامحاتٍ تطلب الشيء وتأبى حين تلقى !
ليس يُرضيها كثيرٌ ، وهي ما تنفك حرقى !
ليت شعري ، اذا بلغنا الجنانا ، هل تُرانا نرضى بها : هل تُرانا؟

كل ما قلناه واثبتناه من شك عريضه المعتاد في غاية حياتنا ، وعجزه الدائم المبرّح عن اشباع نفسه المتضورة من الجوع بقُنات انواع النعيم الارضي ، ينتج عنه حتماً تشاؤمه المطلق . هو اشبه بمن وضع نظّارة حالكة السواد على

عينيه . فلا محيص من ان يرى اجمل الخلائق الناطقة وغيرها سوداء كالفحم وبشيعة كالجثث المنتنة . كثيرًا ما يبدو ذلك التشاؤم العام في ديوانه كمرض عضال يُعجز شفاؤه امهر النطاسيين . اسمعوا نوحه في « حديث الشاعر » :

وانـــا احـــب نفسي شاعرًا ... جاش في قلبي عزيفٌ من وترْ ؛
وترٌ واد ؛ على الحانـــه ... يسكر القلب ويُنشي ما ستر .
ضاق ذرعاً بالاسى ؛ لكنـــه ... ظل في كتمانه حتى انفجر !
فاسمعوا انّاته تروي لكم ... رجْع ما ردده صوت الغيـر
عن ظلام العيش ؛ عن سجن البقا ؛ ... عن قباقي التيه ؛ عن ظلم القدر .
عن ليالي الويل ؛ عن قطع الرجا ؛ ... عن دنو البين ؛ عن بُعد المقر .
عن خداع ؛ عن شقاء ؛ عن شجا ؛ ... عن فراق ؛ عن دموع ؛ عن سهر ؛
عن شقيّ ، عن أبيّ عـــاثر ؛ ... عن شريد ؛ عن نبيّ محتقر ؛
عن فقير حاسد طير السما ؛ ... عن طريد ما له العمرَ مقر ؛
عن عذارى بذلت اعراضها ... في سبيل العيش ؛ بئس المُتجر !
عن ديار بعد مجد خلت ؛ ... وبنوها العبد صاروا في النفر ؛
ما بقيّ منهن عز أجداد لهم ... غير ذكرى من غدا ضمن الحُفر !

يرى ذاته غليلاً ، مُلقى على الارض ؛ ونفسه مغشّاة بالقروح ؛ مثل لعازر الفقير على باب الغني العادم الرحمة ، الذي حدثنا عنه السيد المسيح ؛ ويزعم ان نداء استغاثته المتواتر لا يجد أذناً مصغية ، ولا يُثير قلباً شفيقاً على اقالة عثرته ، فلا يزال يتأوه في قصيدته « انا في الحضيض » :

انا في الحضيضْ وانا مريضْ !
افلا يدٌ تمتد نحوي بالدوا ؛ ... وتبث في جسمي ملامسها القوى ؛
وتُسلّني من هوّتي نحو الذُرى ؛ ... فاسير مستندًا اليها في الورى ؟...
مـــا من مُجيبْ ، ما من حبيبْ !
سر ، ياشقيّ ، كفاك تشكو ما دهاك ... العلّ لا شاك من البلوى سواك ؟
كم ذا تفتش عن مُواسٍ او معين ... هيهات ؛ ان الناس مثلك اجمعين !

نجوم السماء التي تحدثنا بعجائبها الفائقة تصور اقدر العقول ، ولا سيما بانتظام سيرها الرائع السرعة على افلاكها منذ ملايين العصور ، عن عظمة خالقها وحكمته اللامتناهيتين ، قد ظلت صمّاء كالصخور ، على زعم عريضه ، كما ادّعى في قصيدته « ايا نجمة » :

ايا نجمةً سطعتْ في الظلامْ ، ... انيري طريق قنيّ لا ينامْ ؛

فتى عذبته النوى والهموم . فتى ايقظته امور جسامُ !
انيري ضريبتي خلال الرؤى . خلال الشكوك . خلال السآم!
تقد طال ليلي . فهل من صباح؟ وطال اضطرابي . فهل من سلام؟
ايا نجمةً في اعالي السماء . اطلت السكوت . فهل من كلام؟

نجد مثل ذلك التشاؤم المقنّع قنوطاً في « علقت عودي » :

علقت عودي على صفصافة اليأس . ورحت في وحدتي ابكي على الناس !
كأن في داخلي قبراً يرحشه دفنتُ كل بشاشاتي وايناسي !

قد اعترف لنا عريضه في قصيدته « على قبري » . بانه قضى معظم حياته في ضباب الشك . بل في دياجي الالم اللاذع والاستنجاد المخذول :

اقيموا على قبري من الصخر دُميةً يبا رمز عيشي بعد موتيَ يُعرضُ .
يدان بلا جسم تُمدان في الفضا . تمدان من صخر على القبر يرفض :
فيُمناهما مبسوطةٌ تشحذ الجدا . لتُشبع جوع النفس . والجوع يرفض !
ويسراهما فيها فؤادٌ مضرّج تقدمه للناس . والناس تُعرض !

يندر جداً ان يعالج عريضه في شعره غير المواضيع المختصة باحوال نفسه . وقد فرغنا من تفصيلها وابداء رأينا فيها . بيد ان قصائده الاخرى التي تكاد تُعد على الاصابع . قد صُبغت هي ايضاً بسواد حالك من التشاؤم الممتد كسحابة دكناء على صفحات ديوانه . شبه امتداده على ايام حياته . من اشهر واجمل تلك القصائد الشاذة « النهاية » . التي يصف لنا فيها . ثوران انفجار البراكين قرطا ذل شعبه السوري . وفظائع استعباد حكامه الطغاة . فيتسنى له من صميم الفؤاد الموت المادي الشامل . لانه اقل شناراً من موته المعنوي المتحقق :

كفّنوه وادفنوه . اسكنوهُ
هوّة اللحد العميقْ .
واذهبوا . لا تندبوه . فهو شعبٌ
ميّتٌ ليس يُفيق !

ذلّلوهُ . قتّلوهُ . حمّلوهُ
فوق ما كان يُطيقْ !
حمل الذل بصبر من دهور .
فهو في الذل عريقْ !

هتكُ عرضٍ . نهبُ ارضٍ . شتمُ بعضٍ
لم تحرك غضبه !
فلماذا تذرف الدمع جزافاً ؟
ليس تحيا الخطبه !

لا . وربي . ما لشعبٍ دون قلبٍ
غير موتٍ من هبه !
فدعوا التاريخ يطوي سفر ضعفٍ
ويصفّي كتبه !

ولتتاجرْ في المهاجرْ ولتفاخرْ
بمزاياها الحانْ !
ما علينا ان قضى الشعب جميعاً ؟
اقلنا في امان ؟

رُب ثارٍ : رُب عارٍ : رب نارٍ
حركت قلب الجبانْ ؛
كلها فينا ؛ ولكنْ لم تحرك
ساكناً الا اللسانْ !

بعد ابداء رأينا المؤيّد بامثال عديدة ؛ في مميزات نفس عريضه التي استثنناها من مواضيعه الشعرية ؛ لا بد من اضافة بيان وجيز لمحاسن انشائه ومعايبه . هنا يسرنا التصريح بان الشاعر الحمصي الشهير كامل الوقوف ؛ دون عشرات من شعراء الشرق العربي المعاصرين ؛ على جميع الأصول الاساسية للانشاء الجميل المُطرب ؛ وهي الوضوح ، الايجاز ؛ الطبيعية ؛ ولا سيما الابتكار . وقد اخرجها كلها الى حيّز الوجود في قصائده الكثيرة ؛ فما خالفنها مرارًا قليلة ؛ يوجب علينا الانصاف ان نعدّه فلتة من قلمه البليغ .

قد امتاز على الاخص بوفرة خيالاته المبتكرة ؛ السائلة بدون تصنع من يراعه سيلان الماء الزلال من الينبوع . حسبنا ذكر شيء منها ؛ وهو حفنة من كثيب: النامس جسوم ضاعت بين النفوس — نفسي تفتات بالصوم حيناً وترتوي بالسراب — ما سُور جسمي بالمتين — يسيل من فمه النشيد سيل الدماء

من اضلعي — اضأنا مشعل القلب — نفسي على بحر الاسى يتلاعبها جزر ومد — شراع نفسي امل ممزق — فؤاد ذاب في اسر اضلعي — روح تحشرج خلس جسم سامها اسرا — فلنغمر الشك بالمدام .

قصيدته « الى برق » ملأى بامثال تلك الخيالات الجديدة .

خلاصة رأينا في عريضه ان شاعريته محضة ، خالية في الغالب من البهرج وغيره من سقط المتاع . بيد انها ، في اكثر قصائده ، تخطئ اهداف الاسى للقريض . وهو انارة العقول بالحقائق الجوهرية . واضرام القلوب بحب الجمال والفضيلة . بعكس ذلك نرى عريضه دائباً في شعره على بث شكه في غاية حياتنا القصوى ، والضجر من جهادها الدائم . والحزن العقيم على كروبها وبلاياها ، واليأس من ادراك السعادة الابدية بعد الخروج من تلك المعارك المضنية الهائلة .

بين العاشرة والخامسة عشرة من عمرنا ، كان يسرنا ان نرى في شوارع القاهرة ، ايان المساء ، رجلاً في يده مشعل طويل ، يركض من مصباح عال الى آخر ، ليشعل في كل منها غاز الانارة ، السابق ردحاً من الزمان انتشار الضياء الكهربائي . ذلك الرجل الخامل ، مع انه ينثر آلاف الانوار البيضاء في ظلمات الليل ، هو رمز حي للشاعر المتمم واجب فنه السامي العسير ، بانارة الاذهان المظلمة باعلى الحقائق ، واشعال الافئدة الباردة او المنطفئة باشرف العواطف . واحال ان عريضه لا ينشر الاشعة البهيجة المنعشة ، بل الدياجي الحزنة المخمدة للهمم ، لا يثير في مهج آلاف قرائه الشعور النبيل الطاهر ، بل يبذل قصاراه لاطفائه . من ثم يسوءنا التأكيد انه ، وان لم يعوزه شيء من عناصر الشاعرية البحتة — وهي بمثابة مادتها — فقد اخطأ في معظم شعره غايتها الرفيعة ، وهي روحها .